

دوافع العبادة في المسيرة الإنسانية



﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات/ 56). من الحقائق الثابتة في الحياة الإنسانية: إنَّ الإنسان منذ انبثاقه على ظهر هذا الكوكب تتحكَّم في كيانه طاقات حيويَّة تدفعه للقيام بفعالياته المختلفة، وتدعوه لإشباعها...

ومن خصائص هذه الحاجات الطبيعية الراسخة في الكينونة البشرية إنَّها إذا لم تشبع وفق برنامج سليم، تنحرف بالإنسان في حقل التعبير عن ضرورة إشباعها، تحت إلحاح الحاجة إلى ذلك..

والغريزة الجنسية – مثلاً – تنادي بضرورة إشباعها، فإذا تغاضى الناس عن الاستجابة لإلحاحها سلكت بالإنسان السُّبُل الخاطئة لسدِّ حاجتها..

فغريزة حبِّ التملُّك، إذا لم تنوفِّر لها الفرص الطبيعية المناسبة للاستجابة لإلحاحها عبَّرت عن ذلك بالوسائل الشرعية، وغير الشرعية على حدٍّ سواء.

وتقع غريزة التديّن في هذا السّـيـاق، فهي غريزة مركوزة في كيان الإنسان منذ خلقه اﻻ عزّ وجلّ، وتعبّر هذه الجوعة الطبيعية لدى الإنسان عن الشعور بالحاجة إلى الخالق المديّر لشؤون الحياة، وينعكس هذا الشعور الغريزي بالتقديس لما يعتقد الإنسان أنّه الخالق، المديّر، حيث أنّ التقديس يمثّل الدرجة القصوى للاحترام والتكريم القلبي لدى الإنسان!

وهكذا فإنّ تاريخ البشريّة، لا يمكن أن يخلو من ظاهرة التديّن، والتقديس لمعبود معيّن، سواء أكان حقّاً أو باطلاً، ومن أجل ذلك نجد التديّن، والعبادات تراوحت عبر التاريخ بين عبادة اﻻ عزّ وجلّ، وعبادة الأصنام، والشمس، والقمر، والنجوم، والكواكب، والنار، وما إلى ذلك..

والإنسان في هذه القضيّة التكوينية، ينسجم مع طواهر الوجود كلّها من حوله، حيث تبدو كلّها ساجدة في محراب العبودية اﻻ عزّ وجلّ، وإذا كان بمقدور الإنسان أن يشذّ عن معبوده الحقيقي، فيعبد سواه، فإنّما يتم ذلك بسبب حرّية الاختيار التي منحها اﻻ للإنسان دون سواه، إضافة إلى تأثير التربية والثقافة الفاسدة النائية عن اﻻ عزّ وجلّ:

(وَنَزَفْـسُ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا) (الشمس/ 7 - 8).

ومن أجل ذلك فإنّ الوجود يشهد لونيّن من الخضوع والعبودية اﻻ عزّ وجلّ:

1- الخضوع التكويني اﻻ عزّ وجلّ: إنّ هذا الخضوع، وهذه العبودية اﻻ عزّ وجلّ تشمل الوجود كلّّه بكلّ تفاصيله، لا يشذّ منه شيء أبداً من الذرّة المتناهية في الصغر إلى المجرّات العملاقة في هذا الكون الرحيب، بما في ذلك الشمس، والقمر، والنجوم، والملائكة، والجنّ، والنبات، والماء، والرّيح، والجمادات، والإنسان كذلك..

فرغم حرّية الاختيار التي منحها اﻻ تعالى للإنسان – كما أشرنا – إلّا أنّ الإنسان من حيث تكوينه جزء من هذا الوجود المسبّـج اﻻ عزّ وجلّ ..

فهو ليس بمقدوره أن يتخطّى قوانين الطبيعة التي تلقي بثقلها عليه، كقوانين الضغط، والكيمياء، والفيزياء، والحياة، والموت، والصبا، والشباب، والعجز، ولون البشرة، والطول، والقصر، والأسرة التي ينتمي إليها، فهو في ذلك وفي كثير من أمثاله خاشع اﻻ تعالى، رضي أم أبى، آمن باﻻ تعالى أو كفر، فهو كسائر المخلوقات في عدم القدرة على خرق قوانين اﻻ عزّ وجلّ التي وضعها، ولذا أشار القرآن

الكريم - وهو لسان الحق الذي لا ريب فيه - إلى هذه الحقيقة الكبرى في عدّة مواضع من توجيهاته ونداءاته الموقظة، الحيّة:

(يُسَبِّحُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ) (الجمعة / 1).

(وَلَا يَنْفَعُ الْإِلَاحَ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ) (الإسراء / 44).

(وَلَهُ أَسْلَامَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا) (آل عمران / 83).

(أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ الْوَعْدُ الْعَالَمِينَ) (الأعراف / 54).

2- الخضوع التشريعي ﷻ عزّ وجلّ: إمتاز النوع الإنساني دون مخلوقات ﷻ عزّ وجلّ كافّة بكونه يملك إرادة واختياراً في فعل الخير والشرّ على حدّ سواء، فهو بما منحه ﷻ عزّ وجلّ خصوصية الاختيار، بمقدوره أن ينسجم مع أوامر ﷻ تعالى ونواهيه التي صدع بها رسله (عليهم السلام)، كما إنّ بمقدوره أن يعصي، ويتمرّد ويطغى، ويتجاوز حدود ربّه الأعلى عزّ وجلّ...

وهو في هذه الميزة، يختلف عن علاقته التكوينية مع ﷻ عزّ وجلّ، فإذا كان الإنسان في علاقته التكوينية مع ﷻ عزّ وجلّ، كسائر المخلوقات مسيّرّاً خاضعاً لا اختيار له، ولا إرادة، فإنّه في علاقته التشريعية مع ﷻ عزّ وجلّ، وطريقة تنظيمها، مختار، مريد، يختار أسلوب علاقته تلك كما يشاء ..

وعن هذه الخصوصية التي اختصّ بها الإنسان دون سواه يتحدث القرآن الكريم في كثير من نصوصه المقدّسة:

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا) (الدّهر / 3).

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمَرْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ) (الكهف / 29).

(مَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّا زَمُّهُ وَيَهْتَدِ لِنُفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّا نُضِلُّهُ عَمَلَيْهِهَا)

وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا (الإسراء / 15).

(أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ، أَفَأُنْزِلَتْ تَكُونُ عِلَالِيَهُ وَكَرِيلًا) (الفرقان / 43).

(اتَّخَذُوا أَحِبَّاءَهُمْ وَرُحَمَاءَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ...) (التوبة / 31).

وهكذا تعبّر هذه النماذج من النصوص الكريمة، وأمثالها كثير عن ميزة الإرادة والاختيار التي اختصّ بها الإنسان دون سواه من الموجودات، وعن نتائج تلك الحالة التي تتمخّص عنها حالات شتّى يختارها الإنسان بإرادة منه، ورغبة: فهو مرّة شاكراً تعالى على نعمه، منيب إليه، مقدر حقّ قدره، ومرّة تراه كافراً بنعم الله تعالى، متجاوزاً حدوده ونواهيه، متخطّياً أوامره وقيمه!

وتراه مرّة هادياً مهتدياً، ليحقّق لنفسه الخير والسعادة، وتراه أخرى ضالاً، منحرفاً عن سواء السبيل، يتحمّل نتائج أعماله عذاباً وابتعاداً عن نعم الله تعالى، ورضاه...

كما نراه أحياناً يتّخذ هواه، ونزواته الهابطة إلهاً من دون الله عزّ وجلّ، فينحط، ويتسافل، ويسقط في مستنقع الرذيلة والانحراف كما يفعل مثل ذلك حين يتّخذ من المؤسسة الدينية المنحرفة عن قيم الأنبياء (عليهم السلام): «الرّهبان، والأخبار» أرباباً من دون الله تعالى، يشرعون له حسب أهوائهم، وما يشاؤون، بعيداً عن شرع الله تعالى ونهجه، فيحلّون حرام الله، ويحرّمون حلال الله تعالى. ►